

من جبران خليل الصليبي

تقاطعت التجربة الانطباعية بين الماهدين للفن اللبناني بحكم ارتباطها بالمكان الذي انطلق منه كل ما هو لهذا الفن. فمن مدرسة روما التي خرّجت داود قرم وحبیب سرور الى المدرسة الانكليزية - الاميركية التي اعطت جبران خليل جبران و خليل الصليبي، كانت الطبيعة الرومانسية هي الشيء المشترك والعين التي تقف عند حدود بصرها الواقعية الملموسة بالمادة الجامدة احياناً وبالشاعرية المتحركة النافذة الى العمق البشري احياناً اخرى.

جبران خليل جبران كان عين الرسم وشاعره. وما استعانت به بالاسلوب الرمزي التأثري سوى روح متمردة جديدة ادخلت الى حياتنا الفنية ظلاً لوجه مغاير ولوناً لامرأة متجردة بالروح حاملة بالمطلق.

إن المفاجأة في جبران كرسام هي شبيهة بالشاعر المفاجيء الذي كانه في «النبى»، في «المجنون» وفي «حفار القبور». ولهذا يحتاج جبران الى كتاب منفصل، خاص بعبقريته كرسام، من زاوية مختلفة. لان رؤيته لا تشبه هؤلاء الماهدين للفن اللبناني في بداية تكونه وتشكله. فحين هو عين العين في الشعر والرسم معاً، هم لحظة الواقع كما هو نقلاً لا خلقاً. مع ان جبران التقاهم في رومانسية الوجه والمشهد. ولكنه ظل بعيداً في روحه وفي «مطلقته» غير المحدودة في كل ما اعطى وجسّد من صور واحلام ورؤى^(١).

(١) مراجعة كتابي في هذا الشأن «النفس الطاهرة بين جبران والحويك» - ١١ رسالة جديدة وميشال بصوص» دار مصباح الفكر، بيروت ايار ١٩٨١ (المؤلف).

لم يكن جبران، في ذلك، اسير المدرسة الرمزية - الرومنسية في اواخر القرن الماضي أو مطلع القرن العشرين فقط. بل كان هناك خليل الصليبي الذي حمل روح التمرد الى الوجه الذي رسم، امرأة كانت أم فلاحاً، صورة لذكرى لبنانية أم حالة نفسية ضجت بها ريشته. الصليبي كان عالم نفس الوجوه. ولهذا ضحى باللون في سبيل الهيئة البشرية. وعلى يده تتلمذ اكثر من فنان لبناني معاصر (قيصر الجميل وعمر الانسي...).

ولد الصليبي في بطلون، قرب بجمدون عام ١٨٧٠. في العشرين من عمره سافر الى عاصمة اسكتلندا ادنبورغ ليتابع فيها علومه الاكاديمية، بعد تركه الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الاميركية اليوم) ثم الى اميركا، باريس، ايطاليا، هولندا فيروت.

اغنى الصليبي شخصيته الفنية بعيداً عن قرينته في الغربية. وانتج وعرض في شيكاغو. قبل عودته النهائية الى لبنان زار باريس وشاهد بام العين تفجر الانطباعية والانطباعيين فيها فأثرت فيه كثيراً.

عن هذه المرحلة يقول الفنان حلیم جرداق في دراسة عنه:

«وصل الى باريس يوم كانت باريس في اوج الخضة الفنية التي احدثتها الانطباعية بانقضاضها على الاكاديمية.

ان هذه الخضة كانت عنيفة الوقع في نفس فناننا الشاب الذي نرى انه برهن عن قوة في الشخصية وعن دراية فلم يتسرع باتخاذ موقف من هذه الجماعة او تلك، بل رجع الى نفسه التي مالت به رغم اعجابه بالانطباعيين، الى الاساس الاكاديمي المعمول به آنذاك ليتفهم من خلاله طرائق المعلمين الترائيين ويقف على اسرار العمل الفني الذي يصمد ويبقى عبر تقلبات الظروف وتغيرات الازمنة.

كان من الطبيعي ان يعجب الصليبي بالانطباعيين وهو الرومنسي والنزاع الى التغيير والمغامرة والذي يحمل في صلبه الوان لبنان وانواره. ولكنه لم يشاطر الانطباعيين في رفضهم النتاج الاكاديمي جملة وتفصيلاً. فان حسه الاصيل بالايقاع والتوازن وبصراحة الخط والشكل جعله يدرك ان بإمكانه ان يستفيد من الاكاديميين من دون ان يفقد شخصيته وفرادته.

واني لا استغرب ان اراه يتقرب من كاروليس ديران Carolus Durand (١٨٣٧-١٩١٧). فلقد ظل هذا الفنان الاكاديمي يدافع عن الاصولية الاكاديمية ضد هجمات الانطباعيين العنيفة.

ان المراقب النفاذ والمنصف يستطيع ان يلمح في الاصولية الاكاديمية عند كاروليس ديران ميلا الى التبسيط في الاشكال والسطوح والى الجودة والتنوع في الالوان التي تعبر عن لطائف شعرية في النفس بجانب البراعة والسيولة في اللمسة.

غير ان هذه المزايا المستحسنة عند ديران كانت نقطة في بحر الاسفاف والتزمت واليباس التي كانت تسيطر على جماعة الاكاديميين في ذلك الوقت، ولذلك لم ينتبه الانطباعيون الى هذه المزايا ولم يأبهوا لها وقد كانوا آنذاك في حمية الغضب على الاكاديميين وكان لديران النصيب الكبير من ذلك الغضب.

ان استقلالية الشخصية عند الصليبي وحدة يقظته ودقة ملاحظته جعلته ينتبه الى هذه المزايا عند ديران.

ان الملون الاصيل في الصليبي مكّنه من ان يستفيد من افضل المزايا عند ديران وغيره من الاكاديميين من غير ان يقع في مزالق التزمت والاسفاف التي لحقت بهؤلاء بعد كوربيه (١٨١٩-١٨٧٧) لجهة الواقعيين منهم، وبعد Ingres Dominique (١٧٨٠-١٨٧٧) لجهة اصحاب الموضوعات التاريخية والادبية والميثولوجية وغيرها. فقد ظلت له ماوية الانطباعيين في اللمسة وفي النظرة الى اللون والنور. مع تأثيرات من المدرسة الانكليزية التي عاش في جوها اثناء اقامته في ادنبرغ ثم في لندن. وقد عرض الصليبي في تلك الفترة في احد المعارض الباريسية لوحة لامرأة اميركانية تجلّت فيها مواهبه في الالوان المختارة والمعبرة^(١).

مرّ الصليبي في مراحل عدة من الواقعية الى الانطباعية، وشهد في اسفاره بين اميركا واوروبا حضرات فنية كثيرة. لكنه عاد الى لبنان يتلمس طريقه ويرسم وجوه المرأة التي قربته من شاعريتها وروح الرومنسية الشفافة.

مات الصليبي في الثامنة والخمسين من عمره وقتل في ضيعته مع زوجته الشقراء على يد قرويين ارتكبوا جريمتهم من اجل «نبعة عين الجرن» عام ١٩٢٨. لكن حياته كانت غنية بالسفر والفن وتميزت اعماله بالرومنسية الشفافة التي تذكر كثيراً بالمدرسة اللبنانية الماهدة لفن الاوائل ولقدرتها على التماسك في اللعبة الانطباعية الكلاسيكية المتينة.

(١) مجلة النهار العربي والدولي، ٨ ايلول ١٩٨٦.

إن هذا التلاقي بينه وبين صاحب «الني» أفسح في المجال، أمام دارسي سيرته الذاتية، والفنية، أن يتبينوا طريق وحدته الأخيرة التي انتهت عام ١٩٦٢ بالعزلة والمرض فالموت.

* * *

ولد الحويك عام ١٨٨٣ في حلتا (قضاء البترون - لبنان). درس في عينطورة والحكمة وسافر إلى روما ملتحقاً بأكاديمية الفنون الجميلة.

عام ١٩٠٩ جاء باريس فالتقى جبران الذي نصحه بأن يعدل عن ترجمة «الكوميديا الألهية» لدانتى ويتفرغ للنحت: «لأن الشرق بحاجة إلى نحات مثلك يا يوسف».

تأثر برودان وبرودويل. آمن بثورة الحجر وبـ «عورا»، محترفه الذي يعلو عن سطح البحر ٧٥٠ متراً. وككل نحات مبدع، لاقى صعوبات دفعته إلى اعتزال الناس والعالم قبل الرحيل الأخير. (مراجعة الصفحة ٤٥)

خليل الصليبي (١٨٧٠-١٩٢٩): ولد خليل الصليبي في بطلون. بدأ الرسم في سن مبكرة جداً مستعملاً آنذاك رؤوس عيدان الكبريت ثم ريشة الحبر والفحم الحجري.

سنة ١٨٨٦ دخل الكلية السورية البروتستنتية (الجامعة الأميركية في بيروت اليوم). غادر الصليبي لبنان متوجهاً إلى «إدنبورغ» لإكمال ثقافته الفنية عام ١٨٩٠ ليلتقي «جون سنغر» الذي اقترح عليه الذهاب إلى أميركا. وهكذا كان.

في أميركا التقى فتاة احلامه في فيلادلفيا وتزوجا. بعد فترة من زواجه عاد الصليبي وعقيلته إلى انكلترا للعيش فيها فسكنوا مدينة «إدنبورغ» بادية الأمر ثم انتقلا إلى لندن. لوحته «فينوس دوميلو» حازت على الميدالية الذهبية في معرض «إدنبورغ» عام ١٨٨٩. ولأنه كان يبحث دائماً عن آفاق جديدة سافر الصليبي وزوجته إلى باريس ليتلمذ على يد «بوفيس دو شافان». خلال إقامته في باريس عرض أعماله في قاعة الاستقلاليين وفي «Durand-Ruel» التقى «بيار-أوغست رونوار».

في باريس كان الفنان الأكثر تماشياً مع العادات الانكليزية.

امضى خليل الصليبي عشر سنوات في الغرب ليعود بعدها إلى وطنه لبنان فمارس مهنة التعليم عام ١٩٠٠ في الجامعة الأميركية وعمل على رسم صور أصدقائه ورجال الأكليروس. ولكن زوجته «كاري» كانت الأوفر حظاً، ففي العام ١٩٢٢ وفي معرض باريس خلفت صورة كاري «انجيليك» موجة عارمة من الأثارة لما تضمنته هذه اللوحة

من شفافية في العمل وجمال في الألوان والفوضى التي عقبته سرقة هذه اللوحة الخلافة. ولكن سرعان ما اعيدت. وكان الصليبي قد اسس مشغله الخاص به قبل عامين من هذه الحادثة. ودرّس تلامذة من بينهم قيصر الجميل.

غاب الصليبي في الثامنة والخمسين من عمره. ليقتل وزوجته اثر خلاف على حقوق المياه التابعة من ارض الفنان. ولأنه احد رواد النهضة الفنية فقد كرمه تلامذته امثال عمر انسي وقيصر الجميل بتسميته «عميد النهضة الفنية اللبنانية». (مراجعة الصفحة ٤٥)

فيليب موراني (١٨٧٥-١٩٧٣): بدأ فيليب موراني حياته الفنيّة في سن مبكرة جداً وسافر الى روما وهو في السابعة عشرة من عمره ليعمل مع «برتوني». عام ١٩٠١ سافر الى باريس ودرس الفن على يد «جان - بول لورنس». شارك في العديد من المعارض واغلبها في باريس حيث نال عدة جوائز وحاز على اوسمة رفيعة من وطنه. ساعد فيليب موراني في تصميم وانتاج الطوابع البريدية اللبنانية كذلك وضع احرف طباعة عربية بشكل انسيب لاستعمالها في الغرب. رسم موراني في الصحف الفرنسية امثال «ايللوستراسيون» "L'Illustration" وصمم القاعة الفينيقية الشهيرة في معرض باريس عام ١٩٠١.

رئيف شدودي: «من شاهد لوحات رئيف شدودي، وهي قليلة، يجد ان في رسمه ولونه عمقاً وحيوية ومهارة وجرأة وعلى الاخص في طريقة مزجه الالوان. ولقد حصر فنه في الوجوه البشرية، مع محاولات في الميتولوجيا، فوصل الى الكثير مما توصل اليه الفن الاوروبي، دون ان يركب البحر او يزور المعارض الا انه عرف كيف يستفيد من داود القرم وحبیب سرور وخليل الصليبي.

وفي تصاويره قوة وايمان كأنهما مستمدان من صلابة صخور لبنان. وكان فوق ذلك واقعياً يظهر الحقيقة بشكلها المليح والقيح، فكان قدوة في الصراحة.

مات رئيف شدودي، كما عاش. مغموراً اسمه بين ابناء قومه.»^(١)

(مراجعة الصفحة ٤٨)

مكاروف فاضل (١٩١٠-١٩٤٥): ولد مكاروف فاضل قبيل الحرب العالمية الاولى في بلدة حامات شمالي لبنان. بدأ علومه في مدرسة الضيعة وفي طرابلس. توجه الى العاصمة بيروت فيما بعد ليلتقي قيصر الجميل. بعد مرور اعوام قليلة سافر الى ايطاليا ودرس الفن في كلية الفنون الجميلة في روما عند «سيفيرو».

(١) من المخطوط